المنهج التكاملي: أهو منهج المناهج ؟ أم هو منهج اللامنهج ؟

دراسة في ماهيته ، واقعه وآفاقه

د.عبد العزيز شويط

جامعة جيجل الجزائر

Abstract

To a greatextent, it's not new to say that the field of criticism and its participants in a literary study, whether theoretical or applied, and that with the examination, analysis and interpretation of the literary text through various textual and contextual literary approaches since the historical one to the artistic, social, psychological, structural, semiotic, interpretive, deconstructive, to Reception Theory, etc., has not shown as much difference in approaches as it has shown in terms of the approach of no-approach, that is, the Integrative Approach. Where has the latter first appeared? Who are its figures, proponents and opponents? What are the arguments of each group and how to bring them together? What is the share of the field of an Arabic literary study in this controversy? What are the roots of this so-called approach in Arabic literary criticism traditions? What has its chance been in preserving its specificity, through standing neutral to the backgrounds of other cognitive or philosophical approaches? Has it succeeded in this respect or not? And finally, to what extent can it be considered an approach and fulfil the criteria of an approach?

المقال:

مثلما نجد المسعى أو المبدأ التكاملي مطلوبا في أي فرع من فروع العلم أو أي حقل من حقول المعرفة، فالتكامل مبدأ إيجابي في حد ذاته نجد في المقابل أيضا المنهج التكاملي من المناهج التي ما يزال الجدل النقدي مستمر بشأنها،ليس من باب صلاحية هذا المنهج لنوع ما من النصوص دون نوع،وإنما يواجه هذا المنهج تهديدا حتى من حيث التهديد والتلويح بعدم الاعتراف بشرعية وجوده إلى الحد الذي جعل البعض– في صرامة منهجية ،ومسحة إيديولوجية واضحة– يخرجه من دائرة المنهج و المنهجية،وإذا كان الوليد الجديد يكسب شرعية وجوده من فرض الواقع،فالنقد التكاملي كثيرا ما استغل قصور المناهج الدارسة للأدب في

التوصل إلى كل شيء ليحقق وجوده و لينتزع الاعتراف به منهجا،كما استغل كل المبررات التاريخية والاستشرافية ليضيفها إلى المبررات الواقعية التي فرضها واقعه على الأرض ليجمع النقاد من حوله،ولاسيما اليائسين منهم من المناهج النقدية المعاصرة التي كثيرا ما تجنح نحو صرامة خطوات المنهج الإجرائية،وتارة أخرى نحو الخلفيات الفلسفية و الإيديولوجية لهذا المنهج أو ذاك محققة في الوقت ذاته قصورا في الرؤية و نقصا في استيفاء فنيات و مكنونات النصوص الدلالية و معبرة عن لي لعنق النصوص نحو ما يريده الناقد و ما تريده الإيديولوجيا المرتبطة بالناقد لا الإيديولوجيا التي يفرضها النص .

و عليه كان التفكير جديا في خلق منهج بديل يستفيد من جميع هذه المناهج ، في خطوة إيجابية تحاول الإستفادة من جميع المخزون النقدي الحديث و المعاصر ، النصاني والسياقي .

تكاملية النص و تكاملية النقد (شمولية الطرح و عمق التلقي وديموقراطية الإجراء)

مسبّقا يمكن القول أن المنحى التكاملي في دراسة الأدب و نقده يجانب المعنى الحرفي للمنهج ، كما تجانب المنهجية العلوم الإنسانية من حيث النشأة ، حيث((تجدر الإشارة إلى أن المنهج والمصطلح ينتميان ، أصلا إلى العلوم التجريبية و العلوم البحتة والمباحث الفلسفية ، حيث يحتل التعريف و المعنى المجرد و الترسيمة الذهبية و البديهيات والتصورات العقلية و القوانين ... مكانا بارزا)) 1 و ينسحب هذا على جميع مناهج البحث في العلوم الإنسانية بما فيها مناهج النقد الأدبي ومنها المنهج التكاملي ، فهو ينافي بشكل واضح و جلي الثبوت المفترض في الخطوات الإجرائية لمنهج نقدي ما ، هذا الثبوت الذي نقصده هو ما يعبر عنه بالتناسق بين الأصول النظرية و الأدوات الإجرائية والموضوع المدروس ، الذي يمثله في مثل حالة النقد هذه النص الأدبي المراد نقده ، أو بعبارة أخرى ما ذكره الناقد سيد البحراوي في قوله:((ما نعنيه بالمنهج : مجموعة متناسقة من الخطوات الإجرائية المناسبة لدراسة الموضوع ، تعتمد على أسس نظرية ملائمة و غير متناقضة معها .

أي أن التناسب و التناسق لا بد أن يتم بين جوانب ثلاثة : الأصول النظرية للمنهج ، وأدواته الإجرائية و الموضوع المدروس.)) 2 والمنهج التكاملي – إن جاز لنا عده منهجا – وفق هذا الطرح لا يمكن أن يحقق التناسق بين هذه الجوانب الثلاثة لأنه وفي حال اعتماده على أكثر من منهج يكون مضطرا كمحصلة للاعتماد على أكثر من نظرية نقدية ذات مشرب و خلفيات فلسفية و معرفية و إيديولوجية و على أكثر من خطوات و أدوات إجرائية قد تتناقض و قد تتعارض و يجمعها على نص أدبي واحد قد يتلاءم مع نص أكثر مما يتلاءم مع نص آخر ، حتى لا نقول يتلاءم مع نص دون آخر و ليخلص في الأخير إلى شيء هو كل شيء و لكنه ليس منهجا ، و لذلك يعلل لنا هذا الموقف الرافض أكثر الناقد

محمد عزام فيقول: "ذلك أن الناقد المسلح بمنهج نقدي يشبه الطبيب الاختصاصي الذي يعالج المرض الذي أجرى اختصاصه فيه: فالناقد الاجتماعي يجيد معالجة الظروف الاجتماعية وعلاقاتها بالأدب، والناقد النفسي يجيد معالجة ظروف المبدع وتأثيرها على نفسيته وبالتالي على نتاجه الأدبي، والناقد البنيوي يجيد تحليل الأدب من وجهة النظر الألسنية وعلاقات البنيات ببعضها بعضاً. ومن المستحيل (خلط) هذه المناهج المتباينة للخروج بفرية منهج "تكاملي"، ذلك أن (النص الأدبي) ليس هو وحده، وإنما هو مجموعة نصوص متناصة ومتداخلة، منها القديم ومنها الحديث. وعلى الرغم من استقلالية النص وخصوصيته، فإن له مرجعه (أو مراجعه) الذي يستمد منه نسغ حياته. والناقد الحداثي حين يمارس عملية نقد نص ما فإنه يعيد كتابته بطريقة أخرى، حيث تنطبع في ذاكرته تصورات تمت إلى الحاضر والغائب: الحاضر الكامن في النص، والغائب فيما وراء النص. ومن هنا التداخل بين الواقعي والخيالي." 3. و الحق أن فكرة المنهج النقدي عند الناقد محمد عزام ما تزال عنده لا تعني شيئا بقدر ما تعني الخلفيات المعرفية و الفلسفية والأيديولوجية لهذا المنهج سواء أكانت – بحسب الأمثلة التي أعطاها – نفسية أم اجتماعية أم بنيوية أم ألسنية ، و المشكلة أن محمد عزام يؤمن بالتناص و التداخل الفكري و المعرفي بين النصوص الأدبية لتنتج نصا جديدا على مسار ما قيل به بأن النص مجموعة نصوص و أن الأسد مجموعة خراف ، و هذا التناص المحقق في النصوص و معه التداخل الفكري ليس محققا بالضرورة للتجانس الفكري و المعرفي ، و عليه فهو يسمح بالتعدد المنهجي تبعا للتعدد التكويني للنص أكثر مما يمنعه . فلعل التداخل الحاصل في النص يسوغ التداخل الواقع والمفترض في المنهج .

نعود قليلا إلى التكاملية في العلوم الإنسانية و منها درس الأدب والنقد من خلال ملاحظة أخذها الباحث الناقد عبد الله أبو هيف من كتاب ديتشز، ديفيد: «مناهج النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق» (ترجمة إحسان عباس) . ص600." ثم كانت خطوة أخرى باتجاه المعرفة العلمية المنهجية لمناهج النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق في كتاب ديفيد ديتش ... ورأى مؤلفه أن كتابه يلقي الضوء على ماهية الأدب وماهية النقد، وينقسم إلى ثلاثة أبواب، يتناول الباب الأول أجوبة النقاد المختلفين على سؤال ماهية الأدب ووظيفته وقيمته، والباب الثاني الناقد التطبيقي، والأساليب المتباينة التي قومت على أساسها بعض الآثار الأدبية، وكيف ينبغي أن تقوم تلك الآثار. أما الباب الثالث فيتناول حقول المعرفة الأخرى أو العلوم الإنسانية التي قد يستند إليها الناقد الأدبي، كعلم النفس وعلم الاجتماع، وهو يبحث في العلاقة بين الأدب وتلك العلوم. وقد رسم هذا الكتاب الطريق إلى المنهج الموضوعي في فسحته إلى النقد التكاملي التقييمي، فيضمن الناقد الموضوعية والرؤية المتبصرة وحكم القيمة السديد، فلا يقتصر عمل الناقد على منهج ضيق وحده، «وكل ناقد أدبي قدير يرى وجهاً ما في الأثر الأدبي، ويطور وعينا بصدده، أما الرؤية

الكلية أو ما يقاربها فلا ينالها إلا من تعلموا كيف يصنعون مزيجاً من الاستبصارات التي تمخضت عنها الطرائق النقدية العديدة". 4

لنخلص في مرحلة تالية إلى معرفة الواقع التاريخي لنشأة هذا المصطلح في حقل الدراسات النقدية عند العرب و عند الغرب على حد سواء ، مع ذكر السبق المحقق عند الغرب حيال هذه المسألة ، فقد أورد الدكتور نعيم اليافي في مقال له منشور بمجلة الموقف الأدبي رأيه حول المصطلح فقال:" استعملت مفردة "التكاملي" وصفاً لهذا النوع من النقد أو لهذا المنهج، وقد أطلق عليه آخرون تسميات أخرى منها النقد المتعدد أو المتكثر، والنقد الكلي، والنقد الحواري، وجميعها مصطلحات ذات مفهوم واحد أو متقارب، وآثرت المصطلح الشائع "التكاملي" رغم ما يوحي به من ظلال دلالات ربما ساءت إليه، ولعل أخطر هذه الظلال أنه "جماع" مناهج مختلفة، أو" ملفق" لها، أو "أفضلها" أو "بديل عنها" مفردة ومجموعة وليس واحداً منها .ومع هذه الظلال رأيت أن تأطير الشائع بتحديد سماته خير من اقتراح آخر جديد قد يحدث بلبلة نحن في غنى عنها الآن، والوقت وقت تأسيس لهذا المنهج وتمكين، ودعوة إليه صارخة أيضاً، وكما فعلت إزاء مصطلح الشعر الحر بايشار الدارج الخاطئ، فعلت هنا مع النقد التكاملي، لأن المهم في الحالين تبين محددات المفهوم قبل العمل على صياغة مصطلحة أو تثبيته. 5، و إنما تم التركيز على مصطلح " التكاملي " لتحقيق معنى الجمع بين المناهج لتشكيل منهج واحد

هذه الفكرة ، فكرة الجمع ، توصل إليها النقد الغربي منذ زمن بعيد حيث انتفت العصبية النقدية والمنهجية،ورأينا النقاد الغربيين يطورون من أدواتهم الإجرائية وينتقلون حتى من منهج للآخر إلى درجة التقارب مع مناهج أخرى أو الاندماج معها والإضافة إليها ولما لا إلى درجة الوصول إلى منهج لا يعترف به الكثيرون كمنهج وهو المنهج التكاملي كما سنرى مع أنريك أندرسون إمبرت حين يقول:" لا يوجد في الحقيقة ناقد يحمل نفسه على طراز واحد فقط،أو منهج واحد فحسب،وكمل الفروع تتبادل نتائجها فيما بينها عندما يكون دارس الأدب ناقدا جيدا ،وكل الطرز تختلط عندما يحكم عليها الناقد الجيد،وقلنا أيضا أنه ليس هناك طراز من النقد أعلى من الآخر ... و الناقد المتعمق لا يمكننا من أن نصنفه بسهولة،لسبب بسيط هو أنه لكي يتعمق في عمل ما ، عليه أن يستغل كل الفروع،ويبارز كل المناهج التي تحاصره"6 بينما انخرط نقادنا—إلا من رحم الله–كل في منهجه الموافق لأيديولوجيته حتى عفا عليها الزمن وعفا على منهجه،معتبرين المنهج هذه الخلفية الفلسفية والمذهبية الأدبية و تلك الخلفية الإيديولوجية ومتجاهلين أن أكثر شيء يكونه هو خطواته وأدواته الإجرائية بل ذلك أكثر شيء يكونه .

و حتى الذين نقلوا هذه الفكرة ، التكامل في النقد ، من النقاد العرب ومنهم د/ نعيم اليافي كان لديهم الوعي الكافي في إدراك منطلقات التكاملية في النقد و الأدب وفي غيرها ، يقول اليافي:" ثلاثة

منطلقات للتكاملية لا تكون . عندي . إلا بها، وعياً وفهماً ومعرفة، أولها رفض الثنوية وإلغاء المتقابلات، فالوجود واحد والتجلي متكثر.. أرض وسماء، خير وشر، شرق وغرب، ذكر وأنثى، عقل وقلب..الخ." 7

و بمزيد من التوضيح التأريخي لعلاقة النقاد العرب المحدثين بالمنهج التكاملي يتحدث د نعيم اليافي عن هذه المسألة التي أخذها جميع من تحدث عن النقد التكاملي و تاريخه عند العرب المحدثين من الباحثين ، يقول:" عبر المنهج في الفكر العربي الحديث خمسون عاماً، بدأ يطرح أول ما يطرح في مجال عالم النفس. ثم انتقل إلى مجال الأدب والنقد، أسسه يوسف مراد يوم كان يعد أطروحته لدرجة الدكتوراه في فرنسة عام 1940 ولاحظ أن ثمة منهجين يعتمد عليهما علماء النفس لتفسير السلوك الإنساني هما منهج التفسير التكويني، ومنهج التفسير الشبكي، ورأى عقم المنهجين كلا على حدة في التفسير، وحاول أن يقدم منهجاً آخر جديداً يخلو من عيوبهما فكان المنهج التكاملي الذي ظل يشرحه ويكتب فيه ويدافع عنه ويدعو إليه طوال ثلاثين عاماً، وكانت غايته الرئيسة من طرح المنهج وتطبقه المحافظة على توازن الإنسان إزاء نوعين من العوامل يخضع لهما، عوامل التفكك والتحلل، وعوامل البناء والتماسك في مجال النقد يمكن أن نعد سيد قطب رائد هذا الاتجاه فقد خصص له فصرً صغيراً في آخر كتابه "النقد الأدبي" الذي صدرت طبعته الأولى عام **1946**، وسماه بمنهج التكامل، ودعا إليه بعد ذلك وطبقه في آن مجموعة من الكتاب والنقاد من أهمهم:

عبد القادر القط وإبراهيم عبد الرحمن وأحمد كمال زكي، كما عقد له شوقي ضيف فصلاً هاماً في كتابه "البحث الأدبي" وأفاض في وصفه وتبيان مزاياه، وأكاد أزعم أن معظم الأطروحات الأكاديمية في عقود الخمسينات والستينات والسبعينات في جامعات القطر المصري اعتمدته في الدرس والتحليل، وفي سورية بدأ يطرح بشكل جماعي، سافر وتبشيري في عقد الثمانينات، وتولت جمعية النقد الأدبي في اتحاد الكتاب العرب حين كان مقررها الدكتور حسام الخطيب وحين تسلمت مقاليدها في منتصف الثمانينات الدعوة إليه، وعقدت لذلك ندوات عدة ناقشت فيها أصوله وقضاياه "8، و سنحاول أن نعرج على بعض هؤلاء الدارسين لنتعرف على ما أوردوه بشأن هذا المنهج معاينة .

و عليه ، فإلى حد بعيد لم يكن بدعا من القول بأن الساحة النقدية والمشتغلين فيها على الدرس الأدبي تنظيرا أم تطبيقا ومن خلال استنطاق النص الأدبي و تحليله وتأويله عبر العديد من المناهج الأدبية السياقية و النصية منذ المنهج التاريخي إلى الفني إلى الاجتماعي والنفسي إلى البنيوي إلى السيميائي و التأويلي و التفكيكي و نظرية التلقي...الخ ، أقول لم تختلف هذه الساحة بشأن منهج كما اختلفت بشأن منهج اللامنهج ، و أعني به المنهج التكاملي ، أين ظهر و من هم أعلامه و أنصاره ؟ من يقبله ومن يرفضه ؟ و ما هي حجج كل فريق من الفريقين ؟ و كيف يكون التوفيق بينهما ؟ و ما حظ ساحة الدرس العربي الأدبي من هذا الجدل ؟ و ما هي جذور هذا المنهج (بين ظفرين) في التراث النقدي الأدبي العربي؟

و ما حظه من اجتناب زوال الخصوصية ، من خلال الوقوف على الحياد من خلفيات المناهج الأخرى المعرفية والفلسفية ؟ و هل نجح في ذلك أم لم ينجح ؟ و ما مدى كونه في الأصل منهجا أم لا يصدق عليه ما صدق " المنهج " ؟ لأننا سوف نلمس ذلك بدقة حين نصل إلى ردود الدكتور سعد الدين كليب على مقالة الدكتور نعيم اليافي في مجلة الموقف الأدبي و المذكور من قبل ، فكل الجدل كان حول النص و المنهج ، أو مدى منهجية التكامل ، و مدى ملاءمته للنص .، هذا و إن جدلية النص و المنهج في الحقيقة قديمة قدم النقد الأدبي ، ذلك أن المغالبة بينهما نشأت و استمرت و ما تزال سائرة إلى ما شاء الله ،" تلك هي تراجيديا النص و المنهج ، فالأول يتأبى على التحليل و لا يكشف إلا عن بعض زواياه ، و الآخر يتحدى و يطور آلياته لينتزع بعض أسراره". 9

والحق أن الكثير من الذين أرخوا للنقد الأدبي عند العرب و عند الغربيين دافعوا عن منهج بديل هو النقد التكاملي،المتكامل،والأمر واضح فيما يتعلق بمؤرخي النقد الأدبي وملتبس إلى حد بعيد بالنسبة للمشتغلين على ممارسة النقد الأدبي تنظيرا أم تطبيقا،فقد تبنى النقاد مناهج ومذاهب واتجاهات النقد السائدة وتعصبوا لها،بينما لم يسر مؤرخو النقد هذا المسار،ومثلما سنرى مع ستانلي هايمن فيما بعد بشكل أكثر وضوحا،تغرينا ملاحظات أحمد أمين في حديثه عن مواصفات الناقد أنه ينشد فيه ناقدا متجردا يتحلى بالموضوعية والعلمية ويتحلى بالمعارف الشاسعة المتعددة ربما إلى حد الموسوعية وهو ما من شأنه أن يحيلنا إلى ناقد يصلح للنقد التكاملي،يقول أحمد أمين تحت عنوان"بعض المؤهلات للناقد الحق":(أولا: إلى أي حد يقترب في تكوينه الفكري وفي نفسيته مما نسميه النموذج المثالي للناقد؟" 10

ليجيب على سؤاله الدكتور أحمد الشايب فيقول بعد أن جعل دراسة الأدب من خلال الغوص في جوهر العمل الأدبي والبحث في فنياته أمرا لابد منه:((على أن الأصل الأصيل لمناهج البحث الأدبي هو وحدة الحضارة الإنسانية فكل عناصرها الطبيعية والاجتماعية و السياسية متشابكة متفاعلة لا يستقل أحدها بالحياة منفردا و إنما يتصل بسائرها مؤثرا و متأثرا ، فإذا أردنا دراسة الأدب كان علينا – منهجيا — أن نلاحظ آثار تلك العناصر في صياغته و تطوره و بذلك كنا نمهد للنقد والتاريخ ببيان هذه المقومات التي أسميها بيئة الأدب " 11

و بهذا نحصل على منهج شبه متكامل يحيلنا إليه أحمد الشايب من خلال جمعه بين العناصر الداخلية في النص الأدبي (الدراسة النصية) و الجوانب الخارجية لهذا النص (الدراسة السياقية) و هي إشارة إلى ضرورة الجمع بين المناهج المختلفة تبعا للاختلاف الحاصل في تكوينية النص الأدبي .

مقدمة ثانية حول المنهج (الربط بالجذور)

في كثير من مظاهر الثقافة العربية الإسلامية الحديثة نلاحظ نزوعا نحو السلفية الفكرية ، و التقليد السلوكي و التفكيري أكثر مما تنزع نحو التجديد ، و لاسيما في علوم اللغة و الأدب ، هذا الموروث الرئيس الرهيب ، و أمام حقيقة الموسوعية الضاربة بجذورها في عمق لاوعينا الجمعي و في عمق لا وعينا الفردي فضلا عن تواجدها الكثيف في وعينا الفردي و الجماعي ، و كما عثرنا على تعدد مناحي النقد في تراثنا النقدي المنهجي العربي منذ قدامة إلى ابن رشيق ، توخيا للشمولية و إتباعا لمنهج التفسير التأويل للنص الشريف ، فقد تعددت المعايير من سياقية برانية (سبب النزول و ظروف المقول) إلى نصية (النحو و الصرف و البلاغة و العروض) و هي جوانية إلى ما هو براني من فقه و نقد أخلاقي و ما إليه .

ولم يكن الأمر بدعا في النقد الأدبي ودراسة تراث العرب الشعري والنثري بقدر ما كانت السمة الغالبة في التعامل مع التراث العربي على وجه العموم،فقد كان((استكشاف الآليات الإنتاجية واستعمالها في تقويم التراث من شأنه أن يحمل الدارس على ترك النظرة التفاضلية واتخاذ النظرة التكاملية في هذا التقويم" 12

فمن أجل ذلك كان من المفروض أن لا تتعارض عقلية الأفراد في المؤسسات النقدية و المراكز الفكرية العربية في تعاملهم النقدي مع الفعل النقدي عند هذه المؤسسات بما فيها من نقاد،أعني أن النظرة التي تعامل بها العرب مع التراث اتسمت بالتكاملية المنهجية فلم لا تكون لديهم ذات النظرة مع النص الأدبي تراثيا أكان أم حداثي ؟و هذا التساؤل يحيلنا إلى تساؤل آخر يطرح نفسه بهذه المناسبة وهو:هل كان المنهج والنقد هو الهدف والأساس؟ أم كان النص ومعناه وفنيته هو الهدف والأساس؟ أم كانت الأيديولوجية المصاحبة للمنهج هي الهدف والأساس ؟ هذه الأخيرة يسمونها في المحافل النقدية والمراكز العلمية الأدبية الأكاديمية و غيرها بالخلفيات الفلسفية والفكرية للنقد كما سبقت الإشارة إلى ذلك. وعلى هذا الأساس" ترتكز الاتجاهات الإنسانية في النقد الأدبي الحديث إلى عنصرين أساسيين هما الخبرة والقيمة، ويحاول الناقد في هذا الاتجاه أن يستجلي المعاني من خلال خبرته،معتمدا في ذلك على منظومة القيم التي يحتفظ بها في داخل نفسه.وذلك ما يجعل الناقد الذي ينتمي إلى ثقافة إيديولوجية معينة يرفض القيم التي تنادي بها ثقافة أو إيديولوجية أخرى تتعارض مع إيديولوجيته." 13 متناسيا المشارب المختلفة للخبرة وللمخزون المعرفي المحصل قبل التخصص في إيديولوجية بعينها كما يتناسى نسبية القيمة التي يريد أن يكشف عليها في النص الأدبي ما دامت رؤيته للنص و لمنظومة القيم التي يختزنها تقابلها منظومات أخرى للقيم يختزنها غيره وقد تكون أصلح أو أقرب من منظومة قيمه .

من الضروري أن نبدأ بممثل واحد و قوي للرافضين للمنهج التكاملي – إن صح عنه هذا الموقف ، أم أن إخواننا النقاد السوريين يتجنون علينا أحيانا كثيرة ، و لاسيما الناقد عبد الله أبو هيف كما لاحظت في كثير من دراساته التي غزت منشورات اتحاد الكتاب العرب و استحوذت عليها – ، نقول ذلك افتراضا و

لا سيما ما دمنا نسير نحو الإثبات لا النفي ، نحو القبول لا الرفض ، نحو الموافقة لا الرد ، و هو الدكتور عبد الملك مرتاض الذي تغرينا ملاحظات الدكتور عبد الله أبو هيف للرد عليه فنناقشها ، و نكتفي بها و هي قوله :" وأكمل مرتاض هجمته النقدية على المنهج التكاملي، وانتقد أفخاخ البنيويين الرافضين للإنسان والتاريخ والحقيقة والمجتمع إلا حقيقة اللغة الفنية من حيث هي سطح قبل كل شيء، فهذه المناهج، برأيه «كالسموم التي تتسرب في أجسامنا من فعل اللدع أو أمر العدوى المرضية» ولم يسلم التراثيون من سهام نقده، ممن يعتقدون أنهم بالرجوع إلى المناهج التراثية العتيقة قادرون على مواجهة ذوق العصر، ومعايشة أهله، ولذلك كان منهج مرتاض انتقائياً، وهو «أن نفيد من النظريات الغربية القائم كثير منها على العلم، كما نفيد من بعض التراثيات، ونهضم هذه وتلك، ثم نحاول عجن هذه مع تلك عجناً مكيناً،ثم من بعد ذلك نحاول أن نتبادل النص برؤية مستقلة مستقبلية». 14 " 15

ولست أدري أي رفض رآه الدكتور عبد الله أبو هيف لمرتاض بخصوص المنهج التكاملي؟وهل المنهج التكاملي عند أبي هيف منهج قائم بذاته محدد المعالم و الخطوات يعرف الباحث فيه أي العناصر تتكامل لتدرس النص ؟ أم أن المنهج التكاملي في حقيقته منهج فكرة ،ولا يخرج عن ضرورة التكامل بين المناهج مراعاة لمبدأ التناسب بين الخطوات الإجرائية وعنصر ما من عناصر النص؟و هل كل تكامل حاصل بين المناهج في دراسة النص الأدبي ليس منهجا متكاملا إلا إذا صب في قالب منهج تكاملي استخدمه ونظر له فلان أوعلان في أوروبا مثلا؟.

و الحق أن ما أورده أبو هيف لمرتاض حجة عليه ليست له ، لأن مرتاض يؤمن بفكرة التكامل في المنهج و إنما كان موقفه من منهج تكاملي استخدمه أحدهم من منطلق أنه منهج غربي و ليس من منطلق أنه منهج تكاملي حتى نقول أن مرتاض ضد المنهج التكاملي على وجه العموم .

نرجع قليلا إلى الجذور الفكرية ، فتحت عنوان " التقويم التكاملي و البناء الآلي للتراث " و هو الفصل الأول من كتابه " تحديد المنهج في تقويم التراث "كتب المفكر طه عبد الرحمن مواصلا تجلية فكرة أو إشكالية المنهج في التعامل مع التراث العربي ، و منه التراث الأدبي: ((و من المنطقي أن استمداد مناهج من مجتمع و نقلها إلى مجتمع آخر،لا يبقي على هذه المناهج كما هي ، و إنما هو بالضرورة يعمل على تعديلها و تحريرها بما يتناسب مع وضعه هو الخاص،و هو أمر – إذا تم بوعي – يمكن أن يحقق إضافات حقيقية و مفيدة لهذه المناهج" بل الأكثر من ذلك فإن الدكتور طه عبد الرحمن يفترض تكاملا في المنهج المتعامل مع التراث لأن التراث في الأصل متداخل متكامل في عناصره و أجزائه ، يقصد بذلك التركيب الذي يقابله تركيب في المنهج.كما يمكن أن يخرج بهم(المتلقين للمنهج الغربي) في سياق خطئهم القصري أم

العمدي في نقل المنهج إلى مناهج أخرى ، فتنتفي بذلك حجة الخطوات المنهجية التي يجب احترامها في المنهج الذي أخذ منه بطرف لتكوين المنهج التكاملي .

لعله صحيح أن أعتقد أن النص و معناه و فنيته هي الأمور الأساسية و المقصودة بذاتها عند نقادنا القدامى كما كان الإعجاز القرآني (الفنية) و الأحكام (المعاني) هما الأساس في تفسير النص الشريف ، و عليه لم يكن لا النحو و لا البلاغة و لا العروض و لا حتى الأخلاق هي الأساس و الهدف عند نقادنا القدامى ما داموا ليسوا نحاة يبحثون عن الشاهد النحوي ، بل هم نقاد أدب استخدموا كل هذه المعايير للوصول إلى الحقيقتين الدلالية و الجمالية الفنية في النص ، و زاد عليها القاضي الجرجاني مقولته التي زلزلت النقد الأخلاقي" و الدين بمعزل عن الشعر". فأي مستقبل للإيديولوجية النقدية الصارمة و النازعة بشدة نحو التخصص في موروثنا النقدي العربي ، و في عقلية النقد عندنا و إن أخذنا بعضا من المناهج من الغرب ، و إن تأدلج الكثير من نقادنا واتبعوا المعسكر الشرقي أو الغربي أم اتبعوا نقد السيد قطب و في المقابل فشل ذريع في سريان حتى إيديولوجية الأخلاق في النقد و الأدب ؟؟ .أريد أن أصل إلى قابلية العقل العربي إلى التكاملية النقدية الموروثة.

لقد ورثنا النقد كما ورثنا الأدب والأخطر من ذلك ورثنا عقلية النقد أكثر مما ورثنا النقد ، فقضت مقولة القاضي الجرجاني على النقد الأخلاقي والنقد الأيديولوجي،وهو ما سمح لنا بتعدد مشارب ومعايير واتجاهات النقد ، واختلفت المنهجية بيننا وبين الغرب الذي يميل أكثر نحو التخصص،وعليه يمكن القول أن نظرتنا نحن إلى المنهج التكاملي لن تكون بالضرورة متطابقة مع الغربيين في نظرتهم إلى هذا المنهج إن عُدّ منهجا أصلا .

ثم أن تعدد المناهج النقدية في الأدب الغربي و منه العربي كان تبعا لتطور العلوم و تشعبها من ظهور لعلم النبات الأحياء و علم النفس و علم الاجتماع والانتروبولوجيا ...الخ" و لكن هذه الصيحات الجديدة التي استمع إليها القرن التاسع عشر لم تلبث أن هدأت مع مطلع القرن العشرين تحت تأثير نمو العلوم الإنسانية وتقدمها ، و ما ترتب على ذلك من إدراك علاقات جديدة بين الأدب و هذه العلوم تقوم مقام العلاقات القديمة التي حاول مؤرخو الأدب في القرن الماضي عقدها بينه و بين العلوم الطبيعية ، فقد لاحظ مؤرخو الأدب أنه أقرب إلى العلوم الإنسانية منه إلى العلوم الطبيعية ، و أن المنهج الصحيح لدراسته يجب أن يستمد قواعده و قوانينه من هذه العلوم الإنسانية لا من العلوم الطبيعية ، و أنه لهذا يجب أن يتجه إلى الدراسات التاريخية و الاجتماعية و النفسية وغيرها من الدراسات الإنسانية".

و منهم من أمن بضرورة الجمع بين هذه المناهج ، كما يمكن اعتبار هذه المناهج هي العنصر الرئيس في دراسة النص الأدبي طبقا للتجانس بينها و بين النص الأدبي من حيث إنسانيته ، و حين لم تنتف الحاجة للخروج إلى العلوم الأخرى لتكون مناهج مساعدة يتم الأخذ بها و لعل أهمها في مثل هذه الحالة المنهج الإحصائي مثلا إذ لا يخلو وصف من إحصاء وإن قل كمالا يخلو نقد من وصف .

مبررات وجود المنهج التكاملي

ربما نواصل طرح الأسئلة التي تم طرحها في الملخص والإشكالية من خلال هذا التمهيد ؟ والسؤال الموالي هو:هل كانت المناهج الغربية في دراسة النص الأدبي أو اللغوي قاصرة عن الوصول إلى المعنى حتى نتعداها إلى الاستعانة بما تيسر منها جميعا لنخرج بمنهج هو ما اصطلح عليه بالمنهج التكاملي ؟ والحقيقة أن هذه الحجة في حال الجواب بنعم هي حجة أنصار المنهج التكاملي إذ أن طرحهم مفاده قصور المناهج النصانية والسياقية التي تطبق على النص في الوصول إلى كل معاني النص ودلالاته والوصول إلى كل جماليات وفنيات هذه النصوص، وعليه كان ذلك مبررا لاستخدام هذا المنهج التكاملي الذي يعتمد على هذه المناهج ؟ المنهج الاجتماعي و المنهج التاريخي والمنهج النفسي والمنهج الوصفي الإحصائي ثم البنيوية فالسيميائية فالتفكيكية فالتأويلية ... الخ إن التعدد المنهجي في دراسة النص الأدبي يوحي بالتفاوت في فهم النص و تحديد جمالياته ، فالتعدد في حد ذاته دليل على قصور منهج بعينه ، قد يعزى ذلك إلى صيرورة العلمية المتطورة المتجددة ، أو إلى ثورية العلم ، ما دامت نسبة العلمية و المنهجية العلمية في النقد الأدبي أكثر من الذوقية أو الفنية ، لأن الأمر يتعلق بالأدوات والخطوات والإجراءات و المعايير ، و تبقى الفنية كغاية تصل إليها الخطوات العلمية ، فالجمال هدف فني ، ذوقي ، إمتاعي و طريقة الكشف عنه علم ، و ما يقال عن الجمال يقال عن المعنى ، و عليه فإن " هذا التقسيم الثنائي إلى " بحث " و إلى " تذوق " غير وارد على الإطلاق في الدراسة الأدبية الصحيحة ، التي تجمع – في الوقت ذاته – بين الصفة " الأدبية " و الصفة " المنهجية " 19

و المقصود بالأدبية هنا الصفة الجمالية الفنية التي تدرك بالذوق وتحقق المتعة ، بينما المقصود بالمنهجية المنهج النقدي المعتمد لدراسة هذا النص الأدبي أو ذاك .و لذلك كان لاجتماع هذين العنصرين (الذوق و المنهج) في تفسير الأدب المسوغ للاعتماد على أكثر من منهج ، على الأقل استخدام نوعين من المناهج : منهج يدرس به النص مهما يكن هذا المنهج بشرط توفر قرينة تناسبية بينه و بين النص ، و منهج يعلل الذوق الفردي و الجماعي .

أحيانا تكون طبيعة المنهج في تحقيق ملاءمة ما مع النص هي المبرر لاستخدام هذا المنهج أو ذالك ، فالتناسب مبرر من لا مبرر له ، و من خلال ما افترضه نعيم اليافي من مفاتيح التلاؤم يتناسب بالضرورة – في رأيه ــ مع النص ، يقول اليافي :" بينت في دراستي السابقة أن للمنهج خمسة مفاتيح يتلامح فيها هي: الموسوعية والانتقائية والانفتاحية والتركيبية والنصية، أؤخر مناقشة المفتاحين الأخيرين إلى حيزهما بعد قليل، وأقف عند الثلاثة الأول، ماذا أريد بها أولاً، وهل هي صفات للناقد أم للمنهج ثانياً، وهل هي خاصة به أم يشارك فيها غيره ثالثاً؟. "

يضاف إليها مقولة التركيب التي كنا و سميناها بالجمع ، الجمع بين المناهج المختلفة ، أو أخذ أجزاء منها و ضمها إلى أجزاء أخرى من منهج آخر لنحصل على المنهج التكاملي. و لذلك" تعد مقولة التركيب أهم مقولات المنهج، وقد لاحظ الباحث أنها الملمح الوحيد من بين ملامحه التي تنسب إليه وليس إلى صاحبه، وتؤسس مفهوماً محورياً فيه مثل مفهومات اللاشعور والواقع والبنية بالنسبة إلى مناهجها، إلا أن التركيب . كما رأى . ظل في استعمالاتي مقولة هلامية أقرب إلى المتخيل الوهمي منه إلى الحقيقة العيانية الملموسة."

يقول شوقي ضيف عن قصور المناهج في تفسير النص و الإحاطة بجمالياته : " لم يوضع لدراسة الأدب و البحث في شخصياته منهج واحد يعتمده جميع الباحثين الغربيين ، و كأن البحث الأدبي أعقد من أن يخضع لمنهج معين ، أو قل إنه لا يمكن أن يحتويه منهج بعينه ، و لذلك كان من الواجب على الباحث أن يفيد من هذه و الدراسات جميعا ، و هو ما نسميه بالمنهج التكاملي حتى تنكشف له جميع الأبعاد في الأديب و في الآثار الأدبية". 22

و يبرر شوقي ضيف هذا الطرح بتعدد عناصر الأدب و جوانبه الاجتماعية والتاريخية و الطبيعية و التأثرية و الواقعية و النفسية والأيديولوجية ... الخ مما يقتضي تعدد جوانب البحث ، و لكل جانب من جوانب المعنى أو الفنية منهج بحثي يضمه ، و لا وجود لمنهج قائم بذاته يضم جميع هذه الجوانب و يختص بها ، مما يلزمنا للبحث عن منهج يفيد من جميع هذه المناهج و هو ما اصطلح عليه بالمنهج التكاملي ، يضيف شوقي ضيف ملخصا :" و واضح من كل ما سبق أن الباحث الأدبي الحديث ينبغي أن يستضيء في عمله بكل المناهج و الدراسات السابقة ، إذ لا يكفي منهج واحد و لا دراسة واحدة لكي ينهض بعمله على الوجه الأكمل ، بل لا بد أن يستعين بها جميعا ، حتى لا يمكن أن يضطلع ببحث أدبي قديم."23 لأن الجدة مطلوبة لذاتها في العلوم والآداب والفنون و مطلوبة من جهة ثانية في التنظير للنقد الأدبي الحديث و كذلك مطلوبة في تحليل و تفسير النصوص الأدبية القديمة بغير ما قرأها وفسرها به الأوائل ، وأتحدث هنا عن النصوص البشرية تحديدا ، في إطار ما يسمى بجديد القراءات أو إعادة القراءة

للتراث ، أما الأدب الحديث و المعاصر فالحاجة إلى تحديد المنهج ملحة و أكثر من ضرورية لنصل إلى تفسير صحيح و إلى نقد دقيق .

و لكن هذا المنهج الجديد ليس هو هذه المناهج جميعها و ليس هو أيضا أحدها ، فمن أين أخذ منهجيتها مادامت هي مناهج و لا تتحقق المنهجية إلا بأخذ جميع خطواتها ؟.والجواب أنه بإمكان المنهج التكاملي أن يكتسب منهجيته حين يأخذ شيئا من هذه المناهج ، يقتبس من نورها منهجيته و هي مناهج ، و بعد أليست هي مناهج ممنهجة ؟ و الآخذ منها قل أخذه أم كثر لا يعدم أن يأخذ منهجيتها ليكسبها مسارا جديد يصدق عليه اسم المنهج التكاملي .

وفق هذا الطرح يتحدث ستانلي هايمن في كتابه النقد الأدبي ومدارسه الحديثة وبالضبط في نهاية الجزء الثاني من الكتاب ، مما يعني في نهاية الكتاب كله ، و بصراحة في خاتمة الكتاب كله ، و تحت عنوان " هل يمكن إيجاد منهج نقدي متكامل ؟ " حيث حكم على هذا المسعى بالتكاملية و بالمنهجية ، فهو يتحدث عن منهج متكامل يحلم به ، حتى لكأن الأمر ضرورة ملحة النقد الأدبي فيقول " لو كان في مقدورنا ، وهذا مجرد فتراض ، أن نصنع ناقدا حديثا مثاليا لما كانت طريقته إلا تركيبا لكل الطرق و الأساليب العلمية التي استغلها رفاقه الأحياء ، و إذا لاستعار من جميع تلك الوسائل المتضاربة المتنافسة ، و ركب منها خلقا سويا لا تشويه فيه ، فوازن التقصير في جانب بالمغالاة في آخر ، و حد من الإغراق بمثله حتى يتم له التعادل ، و استبقى العناصر الملائمة لتحقيق غاياته . و إذن لأخذ من ادموند ولسن مهمة التفسير أو التوضيح لمحتوى الأثر الفني ، و أضاف إلى ذلك الاهتمام بالقيم الشعرية والشكلية التي قد يجدها في بعض النقد التفسيري عند عزرا بوند .، واستعار من إيفور ونترز الاهتمام بالتقويم و الحكم المقارن وشجاعة ونتز إزاء الآراء التقليدية في أحكامه لا تلك الأحكام نفسها .، و استغل اهتمام إليوت بأن يخلق للأدب موروثا ، و نحا في طبيعة الموروث نحو بارنغتون – مثلا – و أفاد من موقف إليوت الذي يجمع بين الشعر والنقد في يده ... فإذا أخذ ناقدنا المثالي كل ذلك طرح في الوقت نفسه كل تافه محدود غير ملائم من أعمال أولئك النقاد و استصفى النواحي الموضوعية لديهم بعد أن ينزع عنها ما يحيطها من مظاهر ضعفهم ومماحاتهم و فرديتهم "24.

إذن كان للمنهج التكاملي عند الغرب منذ عهد طويل من ظهوره أنصار قائمون على إيجاد مبررات وجوده ، و دون أي عقد منهجية أو أكاديمية أو إيديولوجية يبشر النقاد و مؤرخو النقد الأدبي بنجاحه وبكونه المنهج الأقدر على استجلاء معاني و فنية النصوص الأدبية ، بل ويضيف ستانلي هايمن بخصوص هذا المنهج التكاملي المبني على التكامل بين العناصر الإيجابية و الخطوات الناجعة في كل منهج من المناهج المعروفة : "وهذا التكامل المثالي الذي نريد أن ننشئ منه طريقة نقدية سامية لا يتم بطرح كل العناصر

الجيدة في قدر واحدة وخلطها معا كيفما اتفق و لكنه عمل يشبه البناء على أن يتم حسب خطة منظمة ذات أساس أو هيكل مرسوم . .. و ناقدنا المثالي هذا لن يكتفي بأن يستغل كل الطرق المثمرة في النقد الحديث و يقيمها على أساس منظم ولكنه سيحتقب كل المقدرة و كل ضروب الكفاءة الكامنة و راء تلك الطرق ، فتكون له كفاءة ذاتية فذة و علم واسع كاف في كل هذه الميادين و قدرة على انتحال الوضع الملائم كلما تغير الموقف،و ليس على ناقدنا المثالي أن يؤدي أكثر مما يؤديه الناقد العملي فحسب بل عليه أن يعرف أكثر منه و أن يتجاوزه مدى و بعدا و كيانا (و أن يكتب خيرا منه بطبيعة الحال)." 25 و هو موقف –كما هو ملاحظ – لا يخرج عن السير في الاحتجاج بالتناسب كمبدأ بين التعددية النصية والتعددية المنهجية في عملية النقد الأدبي و ضرورة فرض هذا الوعي بتحقيق ذلك التناسب ملحة مادام النقد سيتعامل مع النص بالضرورة .

و لا نغادر ستانلي هايمن فنقف عنده و لو للمرة الأخيرة و لاسيما حين يجعل من الناقد ذي المنهج المتكامل " المثالي كما يسميه " أصيلا من خلال تدخله في تعديل كل الطرق النقدية و المناهج النقدية و حل مشكلاتها " و أما المشكلة الأخيرة التي لابد لناقدنا المثالي من أن يواجهها – و هي أشد المشكلات هيمنة – فإنها تتلخص في أن كل طريقة من الطرق التي طورها النقاد المحدثون لا تزال في مرحلة أولية من الكشف و لا بد لمنشئ هذه الطرق من أن يتبينوا ذات يوم أنهم لم يفعلوا شيئا أكثر من خدش السطح الخارجي و أن أعمارهم لمن تمكنهم من الذهاب وراء ذلك .غير أن كل طريقة يمكن امتدادها إلى ما لانهاية .، وليس لناقدنا المثالي الهجام أن يستعمل تلك الطرق فحسب بل عليه أن ينمي كل واحدة منها تنمية بالغة فيحل مشكلات كل طريقة و يسوي بينها و بين نتائجها .، و عليه أن يقوم بذلك كله وحده أيضا .. دعنا نجمل ما بسطناه : سيمد ناقدنا المثالي طريقته المتكاملة كلها على مدى ما تبلغه الطرق النقدية الحديثة كل على حدتها ، فيؤدي في الأثر الأدبي كل ما يمكن تأديته" 26 بل الأكثر من ذلك إكساب النقد الأدبي صفة العمق التي لا مندوحة للنقد عنها ، فالنص يقول كل شيء وعلى النقد أن يستكشف هذا ال" كل شيء "الذي يقوله النص ، وما أشبه الأمر بالحواس الخمسة بالنسبة للبشر ، حتى قيل ليس من سمع كمن رأى ، ومن اتبع منهجا واحد – حسب ستانلي هايمن – فقد سمع ولم ير بعينيه ، و لذلك لم يصح الخبر عنده .عود إلى الهدف (بين المنهج التكاملي و النقد الحضاري والنقد الثقافي)

السؤال الذي يطرح هاهنا هو :هل يقترب المنهج التكاملي ، و هو يرفض الإيديولوجية من خلال تعدد المناهج ، من النقد الحضاري أم يبتعد منه ؟ و ما الحدود الفاصلة بينه و بين النقد الثقافي ؟ و الجواب أننا اخترنا الموازنة بينه و بين النقد الثقافي أو الحضاري دون غيرهما من أنواع النقد، لاشتراكهما في

خاصية الشمول و الاتساع، ولأن النقد الحضاري ما تزال معالمه لم تتضح بعد ، غير أن النقد الثقافي ربما يكون الأقرب إلى النقد التكاملي .

النماذج المتحدثة عن النقد التكاملي ، و التي اخترناها من البيئة الغربية أو البيئة العربية تتعلق بالعصر الحديث ، و علينا أن نقترب قليلا نحو المعاصرة و نتتبع موقف النقاد العرب المعاصرين من المنهج التكاملي ، في الثقافة النقدية العربية المعاصرة العديد من النقاد ممن تكلموا على المنهج النقدي التكاملي و عبروا عن نجاعته ، فقد " وضع حسام الخطيب مؤلفات نقدية كثيرة في نظرية الأدب والأدب المقارن والأدب الأوروبي، ونقد النقد، بالإضافة إلى ثلاثة كتب في نقد الرواية والقصة، هي علامات في مسيرة النقد الأدبي العربي الحديث على تأصيل النقد المخصص لهذه الأجناس الأدبية الحديثة، والكتب الثلاثة، هي «سبل المؤثرات الأجنبية وأشكالها في القصة السورية الحديثة» (1973)، و«الرواية السورية في مرحلة النهوض» (1975)، و«القصة القصيرة في سورية: تضاريس وانعطافات» (1982). وقد سمى الخطيب منهجه تكاملياً جديداً، يستند إلى إنجازات النقد الأنجلوسكسوني الجديد، غير أنه يشد الركاب إلى منهجه الخاص خلل تفاعل مكونات شغله النقدي الذي يقوم على التحليل والتفسير والتقييم والتذوق والانتقائية".27

ومراعاة خصائص الجنس الأدبي المنقود في فنيته ونظامه الداخلي وانتمائه إلى نسق ثقافي تاريخي، وهذا واضح في إيضاحاته المسبقة لمصطلحاته ومنهجه وأهداف دراسته، فهو متمكن من آلياته النقدية، ومتملك لفكر نقدي متواصل مع أصول النقد العربي واستمراريته، بالقدر نفسه الذي يتفاعل فيه مع التراث النقدي العالمي، وربما لهذا السبب كانت دراسته النقدية الأولى المعتبرة بحثاً في «المؤثرات الأجنبية» أمام ناقد معني بالهوية الثقافية لأدبه ولنقده العربيين. إنه مولع بالنقد الأصيل الذي يستجيب لطبيعة الأعمال الأدبية العربية، ويحافظ على محليته وهو يتحرك في فضاء الإنجاز النقدي العالمي الحديث. ولنلاحظ شيئاً من دقته وحدوده الصارمة ولغته النقدية الصافية"28 ففي كل مرة تظهر فكرة النسق ، و تتجلى فكرة العلاقة مع النقد التراثي في إطار ما يسمى بالاستمرارية ، ثالثة الأثافي مجاراة الحركة النقدية الغربية و ضرورة الاستفادة منها و هي النقاط الثلاث التي تسوغ – كل مرة – الاستنجاد بالمنهج التكاملي وتقبل جرأة طرحه كبديل نقدي فعال .

كما نجد إطلالة لا بأس بها على النقد التكاملي للناقد فهد عكام وبالتحديد في كتابه " نحو تأويل تكاملي للحكاية الخرافية . نموذج من كليلة ودمنة: باب القرد والغيلم" فقد" افتتح عكام دراسته بمسرد الرموز الدالة على منهجه: الاقتران بين شخصيتين، الانفصال بين شخصيتين، الشخصية، الإشارة إلى أن العنصر الذي تسمه خفي في السياق اللغوي، مستوى التصور المراد تصويره، مستوى الصوري المتخذ وسيلة

للتوضيح، المشابهة، الدال، المدلول، ثم أورد نص الحكاية، وتلاه بمقدمة تسوغ شرعية النظر إلى نص مترجم على أنه أثر عربي، ومما يمنح هذه الشرعية الأمور التالية:

- تمثيل كليلة ودمنة للتراث العربي.
- تجدد الحاجة إلى هذا الكتاب في عصرنا.
- تأثيره في الثقافة العربية.
- أهمية الكتاب عالمياً.

وأورد بعد ذلك الأمور التي تبيح شرعية التأويل التكاملي، وهي:

- تحليل الكتاب لعالم يخص الراوي والبيئة العربية.
- تمثيل باب القرد و الغيلم لعلاقة طبقية.
- أهمية العلاقة بين الاجتماعي والنفسي في تطوير الحدث.
- العامل الاجتماعي . النفسي شرط لمجموع فعالية الشخصية." 29

و هي محاولة منهجية توفيقية بين الشروط المنهجية الصارمة والضرورات التعددية الملحة لفهم النص الأدبي التراثي ، لعل هذه الطريقة تنسحب فيما بعد على نص حداثي ، و لعل أهم ما انتبه إليه الباحث هو علاقة الراوي بالبيئة و هي علاقة الجزء بالكل ، مما يفرض على المحلل احترام الجزء و احترام الكل أيضا ، احترام النص و احترام البيئة من خلال الراوي أو المترجم ، أضف إلى ذلك احتياج موضوع كالطبقية إلى شيء ما يكون متكاملا لدراسته وتحليله و تفسيره .

كما نجد كذلك الدارس سليمان حسين الذي تعامل مع هذا المنهج التكاملي ، فقد " أظهر سليمان حسين (فلسطين) ميلاً كبيراً للأخذ من الاتجاهات الجديدة وتوفيقها مع الاجتماعي والسياسي في الخطاب الروائي في كتابه «مضمرات النص والخطاب: دراسة في عالم جبرا إبراهيم جبرا الروائي» (1999)، فقد درس روايات جبرا من خلال النص وبنيته، أو ما سماه هيكلية النص، وأفرد التحليل للمكان والسرد والحوار والحدث الروائي والشخصيات واللغة الروائية والتصوير الروائي، فيمتزج التحليل بأدوات النقد القصصي والروائي التقليدي السائد مع معطيات كثيرة لعلم السرد، داعياً إلى منزع تكاملي في دراسة النص الروائي." 30 و هو– كما هو واضح – منزع جامع بين المناهج السياقية التي تدرس النص من خارجه و المناهج النصانية التي تركز على ما هو جواني في النص دلالة و رمزا و فنيات أم تقنيات تعبيرية .

ربما تكون الأيديولوجية النقدية و الفلسفية هي التي حاربت المنهج التكاملي من جهة ، و هي التي دافعت عنه و آمنت به من جهة ثانية ، فارتباط الإيديولوجية الإسلامية في فكر السيد قطب المفكر و الناقد بنوع من الشمولية هي جعلت من الناقد الأدبي سيد قطب من أشد المدافعين عن المنهج التكاملي

في نقد الأدب و دراسته و قبل هذا من المدافعين عن مبدأ التكامل الوارد في التراث ، فالرجل يركن إلى سلفية فكرية تقدمية الحركة و سلفية المنطلقات ، والتي اتفقنا من قبل حين تعرضنا إلى رأي الدكتور طه عبد الرحمن إلى أن التكاملية مبدأ موروث في الثقافة العربية الإسلامية التراثية ، و مبدأ مطلوب في قراءة التراث أو إعادة قراءة التراث ، سيد قطب ، و إن كان يعتقد أن المنهج الفني متكامل " غير أنه لا يراه متكاملا مطلقا إلا إذا أضاف إليه الناقد الخطوات الإجرائية لمناهج أخرى و يرفض استخدامه مفردا ، يقول سيد قطب مضيفا تحت عنوان المنهج المتكامل في مبحث مقتضب يعطي عليه أمثلة بنقاد من مثل الدكتور طه حسين و الأستاذ عباس محمود العقاد في كتبهما النقدية :" و لحسن الحظ أن النقد العربي الحديث سلك في أحيان كثيرة طرق " المنهج المتكامل " الذي يجمع هذه المناهج جميعا ... إن المنهج المتكامل لا يعد النتاج الفني إفرازا للبيئة العامة ، و لا يحتم عليه أن يحصر نفسه في مطالب جيل من الناس محدود". 31

و هنا يحق لنا أن نتساءل عن مدى كون المنهج الذي طبقه طه حسين أم العقاد متكاملا ، أم تكامليا ؟ و إن كان سيد قطب يعده منهجا متكاملا و يحدد هذه الدراسات النقدية الصادرة عنهما و هي كتب طه حسين عن المعري و كتبه عن المتنبي و" حديث الأربعاء " و " من حديث الشعر و النثر " و " شوقي و حافظ " و للعقاد كتاب " ابن الرومي " و كتاب " شاعر الغزل " و " جميل بثينة " و " شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي " ثم يتحدث عن نفسه هو " سيد قطب " معتبرا نفسه ممن انغمس في المنهج المتكامل من خلال كتابه هذا " النقد الأدبي أصوله و مناهجه " ولاسيما في فصوله الأولى كما يقول هو وأيضا في كتابيه " التصوير الفني في القرآن " و" كتب و شخصيات " إلى حد كبير كما يزعم أيضا : ثميضيف سيد قطب بعد أن ينفي على المنهج المتكامل انزواءه في خندق العوامل البيئية و الاجتماعية والتاريخية و حتى النفسية و لكل واحد من هذه العوامل منهج يقابله واقعي أم تاريخي أم اجتماعي أم نفسي : ((و المنهج المتكامل يتعامل مع " العمل الأدبي " ذاته ، غير مغفل علاقته " بنفس "قائله ، و لا تأثرات قائله بالبيئة ، و لكنه يحتفظ للعمل الفني بقيمه الفنية المطلقة . غير مقيدة بدوافع البيئة و حاجاتها المحلية .و يحتفظ لصاحبه بشخصيته الفردية ، غير ضائعة في غمار الجماعة و الظروف و يحتفظ للمؤثرات العامة بأثرها في التوجيه والتكوين ، لا في خلق الموهبة و لا في طبيعة إحساسها بالحياة . و هكذا ننتهي إلى القيمة الأساسية لهذا المنهج في النقد و الآداب". 32

فهو يركز من جديد على مبدأ عدم إلغاء طرفي العملية الإبداعية : الذات المفردة والذات الجماعية بما يمثلها من بيئة ، كما يحتفي – في توازن نقدي – بالنص و فنيته وموضوعه كداخل كما يحتفي أيضا بما هو خارجي عن النص و له عميق الأثر و العلاقة في تكوينية هذا النص الأدبي .

الرافضون للمنهج التكاملي العربي :

يبدو الدكتور سعد الدين كليب من الباحثين الذين لديهم موقف انتقادي للنقد التكاملي الموجود عند بعض النقاد العرب و من الرافضين أيضا لدعاوي المنشغلين عليه ولطروحاتهم ، فيبدي ملاحظاته بخصوص منهج الدكتور نعيم اليافي التكاملي فيقول : "لقد ذهبت في مقالتي السابقة إلى ضرورة إعادة النظر والتفكير في مضمون الأدوات المعرفية للمناهج النقدية، من أجل إنتاج منهج تكاملي حقيقي. غير أن الدكتور اليافي قد فهم من ذلك أنني أطالبه بأن يكون ثمة أساس فلسفي لمنهج المفترض. فراح يقول في تعليقه "من حق الكاتب (أي أنا (أن يتساءل كما تساءل يوماً الدكتور عبده عبود عن الأساس الفلسفي للمنهج التكاملي. وعندهما . وأنا معهما في ذلك . أن كل منهج تأسس في الغرب أنتجه فكر، وصاغه مجتمع، وحدده جهاز معرفي متناسج المفهومات والمصطلحات"33 لأن كل منهج نقدي يستعان ببعض أجزائه أو به في صناعة المنهج التكاملي هو حامل لحمولات فكرية و فلسفية ولأدوات معرفية خاصة به ، و من شأن هذه الأدوات أن توقع المنهج التكاملي في تناقض في حال استخدامه لأدوات معرفية لمنهج آخر غير هذا المنهج .

و عليه فالدكتور سعد الدين كليب ليس ضد المنهج التكاملي لذاته ، بقدر ما هو ضد الإبقاء على الأدوات المعرفية لهذا المنهج حتى يصبح منهجا معترفا به و حتى يعترف به هو شخصيا و يرضى عنه معرفيا وعلميا ، إذن فالدعوة العلمية هي دافع الدكتور سعد الدين كليب لمعاضة المنهج التكاملي بطبعته الحالية ، يقول :" أما أن تتمتع المناهج بانسجام داخلي، فيما بين أدواتها المعرفية، فهذا أمر آخر وضروري جداً، فمن دونه لا يمكن الحديث عن منهج .لأنه ليس ثمة منهج حقيقي من دون ذلك الانسجام. وهذا بصرف النظر عن كون المنهج علمياً، في وعي الظواهر، أو غير علمي. بمعنى أن المقولات المتخالفة والمتناقضة وغير المتجادلة لا تشكل منهجاً، ولا تؤسس فهماً متسقاً للظواهر .ومن ذلك جاءت مطالبتنا بضرورة إعادة النظر في مضمون الأدوات المعرفية، إذا ما أردنا أن نبتكر "منهجاً تكاملياً". فما دام هذا "المنهج" يقوم على التركيب فيما بين أدوات المناهج الأخرى، فلا بد له .كي لا يقع في التناقض . من أن يعيد النظر في تلك الأدوات.وإلا فإنه لا يختلف . لا كثيراً ولا قليلاً . عن خيمة الغجر!..." 34 و لذلك كان الهدف الحقيقي من رفض كليب لهذا المنهج هو تحقيق مبدأ الانسجام الذي تحدثنا عنه من قبل ،والانسجام بين أدوات معرفية لمناهج مختلفة الخلفيات المعرفية والمذهبية والفلسفية صعب،لا يتم التغلب عليها كعقبة إلا بإعادة النظر في هذه الأدوات المعرفية .

كما ينصف الدكتور سعد الدين كليب الدكتور اليافي في مسألة الانفراد بالدعوة للتكاملية في النقد في حقل الدراسات العربية المعاصرة ، و إن كان ينتقص من هذه البادرة و الانفراد بوسمها بادرة اجتماعية وفلسفية لا علمية فيقول :" والحقيقة أن الدكتور اليافي هو الوحيد، تقريباً، من بين الداعين إلى التكاملية،

في النقد الأدبي، من يسعى إلى تأسيس التكاملية اجتماعياً وفلسفياً، لا علمياً في المقام الأول، ومن ثم فهو الوحيد الذي يهبط بالمسألة العلمية إلى المسألة الأيديولوجية، فتضيع الحدود بين العلم والأيديولوجيا. وذلك في الوقت الذي لا تكاد فيه مقالة مما يكتبه الدكتور تخلو من هجوم ساخر على أصحاب الأيديولوجيا!... أليس في هذا مفارقة ما بعدها مفارقة!... غير أنها مفارقة مفهومة جداً، وقديمة جداً." 35، ولعل الإيديولوجيا هي التي تخرج المنهج عن علميته و في هذه الحالة تنفي عن المنهج منهجيته .

الخاتمة (نحو دمقرطة النقد):

التعددية الحاصلة في تكوينية النص الأدبي جعلت من النقاد المؤمنين بالمنهج التكاملي يدافعون عنه بشراسة ، إلى الحد الذي يحيلنا إلى ما يسمى بدمقرطة النقد ، كما أن جدلية الداخل و الخارج / السياق و النص التي ملّ النقد الأدبي من تكرارها جعلت بعض النقاد من أنصار هذا المنزع التكاملي أكثر شراسة في الدفاع عنه و عده منهجا بديلا، أما المتمسكين بسلفية نقدية فعالة و إيجابية ، من خلال ارتباطهم بالجذور النقدية ، أو حلمهم بنقد حضاري أو مسالمتهم لنقد ثقافي و حتى أنتروبولوجي ، فلا يمكن أن نتصور منهم أن يديروا ظهورهم لهذا المنهج الذي يخدم أهدافهم و هم يلوحون بمخرج عن الإيديولوجية المقابلة و هي خلفيات النصانية أو الاجتماعية أو النفسية أو الشكلانية وحتى البنيوية و اللسانية و التفكيكية و إلى تأويلية النقاد الألمان " غاديمير " و عليه ، اختلفت الأهواء في كل شيء و اجتمعت مرة على هذا المنهج .

و في الأخير يمكن طرح هذا السؤال : هل المنهج التكاملي منهج واحد أم هو عدة مناهج ؟ و الواضح أن كل واحد من المؤمنين بالمنزع التكاملي في النقد في رأسه منهج تكاملي خاص به و هذه هي الديموقراطية النقدية .

هوامش الدراسة:

1 – أحمد اليبوري : أسئلة المنهج حول رسائل و أطروحات جامعية ، شركة النشر و التوزيع المدارس ، الدار البيضاء المغرب ، ط 01، 2009 ، ص : 27 ، 28 .

2 – سيد البحراوي : البحث عن المنهج في النقد العربي الحديث،دار شرقيات القاهرة مصر،ط 01 ، 1993 ، ص: 111 .

3 – محمد عزام : تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج الحداثية ، دراسة في نقد النقد ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق سورية ، د ط ، 2003 ، ص : 64 .

4 – عبدالله أبوهيف : النقد الأدبي العربي الجديد في القصة والرواية والسرد ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق سورية ، د ط ، 2000 .ص: 163 .

5 – نعيم اليافي : النقد التكاملي حوار الأسئلة والأجوبة ، مجلة الموقف الأدبي– مجلة أدبية شهرية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق – العدد 273–274–275 كانون الثاني وشباط وآذار 1994 .

6 - أنريك أندرسون إمبرت : مناهج النقد الأدبي ، ترجمة : الطاهر أحمد مكي ، مكتبة الآداب القاهرة مصر ، د ط ، 1991 ، ص : 219 ، 220 .

7 – نعيم اليافي : النقد التكاملي حوار الأسئلة والأجوبة ، مجلة الموقف الأدبي السابق .

8 –نعيم اليافي : النقد التكاملي حوار الأسئلة والأجوبة ، مجلة الموقف الأدبي ، نفسه .

9 – محمد أديوان : النص و المنهج ، دار الأمان للطباعة و النشر و التوزيع ، الرباط المغرب ، ط 01 ، 2006 ، ص : 03

10 – أحمد أمين : النقد الأدبي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة مصر ، ط 03 ، 1963 ، ص: 194 .

11 – أحمد الشايب:أصول النقد الأدبي،مكتبة النهضة المصرية،القاهرة مصر،ط 1994،10،ص: .105

12 – طه عبد الرحمن : تجديد المنهج في تقويم التراث ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء المغرب ، بيروت لبنان ، ط 02 ، د ت ، ص: 87 .

13 – يوسف نور عوض:نظرية النقد الأدبي الحديث،دار الأمين للنشر والتوزيع،القاهرة مصر،ط 01، 1994،ص: 09 .

14 – المصدر نفسه ص11–12. مرتاض، عبد الملك: «ألف ليلة وليلة: تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية حمال بغداد» . ديوان المطبوعات الجامعية . الجزائر 1993 . ص.3

15 – عبد الله أبو هيف : النقد الأدبي العربي الجديد في القصة و الرواية و السرد، ص : 286 .

16 – سيد البحراوي : البحث عن المنهج في النقد العربي الحديث ، ص : 113 .

17 – طه عبد الرحمن : تجديد المنهج في تقويم التراث ، المركز الثقافي العربي ، ص : 89 – 92 .

18 – يوسف خليف : مناهج البحث الأدبي،دار الثقافة للنشر و التوزيع،القاهرة مصر،د ط ، 1997 ،ص: 37 ، 38 .

19 – إبراهيم حمادة : مقالات في النقد الأدبي،دار المعارف، القاهرة مصر ،د ط ، د ت ، ص : 08 .

20 – نعيم اليافي : النقد التكاملي حوار الأسئلة والأجوبة ، مجلة الموقف الأدبي، السابق .

21 – نعيم اليافي : النقد التكاملي حوار الأسئلة والأجوبة ، مجلة الموقف الأدبي، نفسه .

22 – شوقي ضيف:البحث الأدبي،طبيعته– مناهجه – أصوله – مصادره ،دار المعارف ،مصر ،ط 07 ، د ت ،ص 139 .

23 – شوقي ضيف: البحث الأدبي ، طبيعته– مناهجه – أصوله – مصادره ، ص : 144 ، 145 24 – ستايلي هايمن : النقد الأدبي و مدارسه الحديثة ، ترجمة د إحسان عباس ود محمد يوسف نجم ، منتدى مكتبة الإسكندرية ، مصر ، د ط ، د ت ، ج 02 ، ص: 245 – 247 .

25 – ستايلي هايمن : النقد الأدبي و مدارسه الحديثة:ج 02، ص : 248 – 250

26 – ستايلي هايمن : النقد الأدبي و مدارسه الحديثة: ج 02 ، ص: 251 .

27– سمر روحي ، الفيصل: «نقاد الرواية في سورية: الدكتور حسام الخطيب» مجلة «الموقف الأدبي»اتحاد الكتاب العرب (دمشق) العدد 121 . أيار 1981 ، ص : 56–58 .

28 - عبدالله أبوهيف : النقد الأدبي العربي الجديد في القصة والرواية والسرد ، ص: 82 ، 83 .

29 - عبدالله أبوهيف :النقد الأدبي العربي الجديد في القصة و الرواية و السرد ، ص : 321 ، 322 .

30 – عبدالله أبوهيف :النقد الأدبي العربي الجديد في القصة و الرواية و السرد ، ص :486 .

31 - سيد قطب:النقد الأدبي أصوله ومناهجه،دار الشروق،القاهرة مصر،ط 08 ، 2003 ،ص: 253 .

32 - سيد قطب : النقد الأدبي أصوله و مناهجه ، ص : 255 ، 256 .

33 - سعد الدين كليب:النقد التكاملي،مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب بدمشق – العدد 281 أيلول 1994.

34 - سعد الدين كليب : النقد التكاملي ، مجلة الموقف الأدبي ، نفسه .

35 - سعد الدين كليب : النقد التكاملي ، مجلة الموقف الأدبي ، نفسه .